

علم السيرة والمغازي في بلاد الشام حتى نهاية القرن الثالث الهجري

محي الدين حسن الحبوش^(*)

المطلب الأول: دخول مرويات السيرة والمغازي إلى بلاد الشام:
يمكن القول بأن مرويات السيرة والمغازي قد دخلت إلى بلاد الشام
من خلال ثلاث طرق:

١ - الفتوحات الإسلامية: كان بدء فتح بلاد الشام في زمن الخليفة
أبي بكر رضي الله عنه سنة (١٢هـ)^(١). وبعد الفتح الإسلامي نزل
الشام واستقر فيها كثير من الصحابة، ولا شك أن الصحابة رضوان الله
عليهم كانوا أعلم الناس بشؤون المغازي وأحوال السيرة الشريفة؛ ذلك
أنهم شهود العيان الذين عاشوا أحداثها وشاركوا فيها فكانت محفوظة
في صدورهم؛ يتناقلونها، ويتذكرونها فيما بينهم، ومن ثم أقبل أهل
الشام على حلقاتهم يسمعون منهم، ويتحملون عنهم هذه المرويات.
إلا أن الزمن لم يُبق لنا من هذه المرويات - في بطون الكتب والمصادر -
إلا الشذرات المتشورة هنا وهناك، وفيما يلي بعض الأمثلة من مرويات
الصحابة في السيرة والمغازي التي رواها عنهم الشاميون^(٢):
- عبادة بن الصامت الخزرجي (ت ٣٤هـ)^(٣): له خبر في قصة بيعتي

* باحث في قسم الحديث النبوي وعلومه ، كلية الشريعة ، جامعة دمشق .

العقبة الأولى والثانية^(٤).

- مسلم بن الحارث التميمي^(٥): له خبر في سرية بعثهم فيها النبي ﷺ^(٦).

- عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني: له خبر في مناقب معاوية^(٧).

- خليفة بن أمية الجذامي: له خبر في قصة إسلامه^(٨).

٢- البعثات العلمية: لما تم فتح بلاد الشام واستقر الأمر فيها للمسلمين أرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعثة علمية من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ وهم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء رضي الله عنهم، أوكل إليهم مهمة إرشاد الناس وتعليمهم، وكان فعل عمر هذا استجابة لطلب يزيد بن أبي سفيان^(٩) الذي وجه بدوره رسالة إلى الخليفة قال فيها: إن أهل الشام قد كثروا وربلوا^(١٠) وملؤوا المدائن، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعني يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم^(١١). فتوجه الثلاثة بأمر عمر إلى حمص أولاً، ثم إن معاذاً توجه إلى فلسطين وكذا عبادة أيضاً، وأما أبو الدرداء فنزل دمشق، فاجتمع عليهم الناس وأخذوا عنهم، وكبرت خلق العلم في بلاد الشام حتى أصبح بعضها يضم الآلاف^(١٢).

٣- الرحلات: أصبحت مدن بلاد الشام بعد الفتح الإسلامي من مراكز العلم الكبرى، خصوصاً بعد انتقال الخلافة إليها في العهد الأموي، إذ نشطت فيها الحركة العلمية نشاطاً واسعاً أكثر من الأمصار الأخرى، وبدأت جاذبية العاصمة السياسية تستقطب العلماء والمحدثين من كل الأصقاع، وكان الخلفاء يسألونهم عن شؤون السيرة والمغازي فيجيبونهم إلى ما يسألون عنه، وهذا وإن شكّل تواصلاً معرفياً بين

الشام والمدينة إلا أنه فرض العزلة العلمية على أهل العراق^(١٣)، وقد تنبه إلى ذلك الإمام الأوزاعي فقال: "كانت الخلفاء بالشام، فإذا كانت بلية سألوا عنها علماء أهل الشام وأهل المدينة، وكانت أحاديث أهل العراق لا تتجاوز جدار بيوتهم"^(١٤). ومن أشهر من رحل إليها منهم فأفاد أهلها منه علماً جماً ومعرفة واسعة:

- عروة بن الزبير بن العوام: وكان متضلّعاً في السيرة والمغازي ومن أوئل من صنف فيها، ولا شك أنه لما وفد على الخلفاء بالشام روى أخبارها وحدث بها، ومما يدل على أثره في نقل مرويات السيرة والمغازي إلى بلاد الشام المراسلات التي جرت بينه وبين (البلاط الأموي) حول بعض أحداث السيرة النبوية، وخصوصاً مراسلاته مع عبد الملك بن مروان، والتي تناولت غزوة بدر الكبرى، وفتح مكة، ووفاة خديجة رضي الله عنها، وقد حفظها لنا الطبري في تاريخه^(١٥).

- عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (ت ١٢٠هـ): وفد على الخليفة عمر بن عبد العزيز في دمشق، فما كان من عمر إلا أن "أمره أن يجلس في جامع دمشق فيحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه... ففعل"^(١٦).

- محمد بن عبيد الله الزهري (ت ١٢٤): قدم دمشق غير مرة، أخذ عنه المغازي والسير خلق كثير تتلمذوا عليه من الشاميين^(١٧).

- أبو إسحاق الفزاري إبراهيم بن محمد^(١٨): قدم دمشق وحدث بها. اتفق العلماء على جلالته ومعرفته بالسير والمغازي، قال ابن كثير: "إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة"^(١٩).

المطلب الثاني : منزلة الشاميين في علم السيرة والمغازي:

لما تحمل أهل الشام مرويَّات السيرة والمغازي وأخذوها عن صدور الصحابة رضي الله عنهم أولوها عنايتهم واهتموا بها أيما اهتمام، بل تجاوز الأمر ذلك إلى أبنائهم حين أخذوهم بتعليمها وحفظها. ولم يزل الأمر على هذا المتوال حتى طار صيت أهل تلك البلاد في أصقاع العالم الإسلامي في معرفة شؤون المغازي والسير والاطلاع عليها، والعناية بها حفظاً ورواية، وتعليماً وتدويناً، ولم يكن لأحد من أقطار المسلمين آنذاك أن يسبقهم في معرفتها، اللهم إلا ما كان من أهل المدينة باعتبارها كانت مُهاجرَ النبي ﷺ ومركز انطلاق مغازيه وسراياه، وقد شهد العلماء لأهل الشام بسعة معرفتهم واطلاعهم في هذا الميدان، قال ابن تيمية: "أعلم الناس بالمغازي: أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق" (٢٠).

ولما كان أهل الشام يأتون بعد أهل المدينة، وكان أهل العراق بعدهم في معرفة السيرة والمغازي أنكر الإمام الأوزاعي على العراقيين دخولهم ميدان التصنيف فيها، فهذا محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ) ألف كتاب (السير الصغير) ولما وقع الكتاب بيد الأوزاعي قال: لمن هذا الكتاب؟ ف قيل: لمحمد العراقي. فقال: "ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب؛ فإنه لا علم لهم بالسير، ومغازي رسول الله ﷺ وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق" (٢١). وإذا كانت لأهل الشام تلك المنزلة الرفيعة في هذا العلم فلا بد من وجود أسباب تقف وراء ذلك، ولعل هذه الأسباب ترجع إلى ما يأتي:

١ - كثرة من دخل الشام من أصحاب رسول الله ﷺ: الله (٢٢). ونقل ابن حجر أن حمص وحدها دخلها أربع مائة من الصحابة (٢٣).

٢- أن أهل بلاد الشام كانوا في حال غزو وجهاد لأعدائهم من الروم: وفي أخبار مغازي النبي ﷺ وسراياه وبطولات أصحابه ما يشحذ الهمم لمقارعة الأعداء، ومن ثم شاعت مرويات المغازي بين المجاهدين وعلى الثغور.

٣- إدراكهم لأهمية سيرة النبي ﷺ: إذ أن الوقوف عليها يشكل عاملاً مهماً وباعثاً أساسياً للاهتمام بهديه واقتفاء سنته، وقد عبر عن ذلك الإمام الزهري بقوله: "في علم المغازي علم الآخرة والدنيا"^(٢٤). وفيما يلي أشهر من اهتم من أهل الشام من التابعين بالسيرة والمغازي:

١- عائذ الله بن عبد الله الخولاني الدمشقي (ت ٨٠هـ): أخرج ابن عساكر عن يزيد بن أبي مالك عن أبيه قال: 'كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا في الشيء من العلم لا يقطعه بغيره حتى يقوم أو تقام الصلاة؛ حفظاً لما سمع. قال: فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل: أحضرت هذه الغزاة؟ قال: فقال: لا. فقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله ﷺ ولأنت أحفظ لها مني"^(٢٥).

٢- عبد الملك بن مروان: كان شغوفاً بالمغازي والسير، واسع الاطلاع عليها، كثير السؤال عنها، قال قبيصة بن ذؤيب: 'لقد رأيتني أنا وهو -يعني عبد الملك- وعدة من أبناء المهاجرين ما لنا علم غير ذلك - يقصد السيرة والمغازي - حتى أحكمناه، ثم نظرنا في الحلال والحرام بعد"^(٢٦).

٣- عمر بن عبد العزيز: لما آلت إليه خلافة بني أمية أمر علماء

المغازي والسير بنشرها وروايتها للناس، ومن أمثلة ذلك أن عاصم بن عمر بن قتادة لما وَقَدَ عليه في دمشق أمره أن ﷺ يعلم أهل الشام السير والمغازي ومناقب الصحابة ففعل.

٤- خالد بن معدان الكلاعي الحمصي (ت ١٠٣هـ): عني برواية أحاديث المغازي، وأخبار السيرة، وتاريخ صدر الإسلام^(٢٧).

٥- المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (ت ١٠٥هـ): أخذ المغازي عن أبان بن عثمان، قال ابنه يحيى: وكثيراً ما كانت تقرأ عليه ويأمرنا بتعليمها^(٢٨).

المطلب الثالث: مصنفات الشاميين في السيرة والمغازي:

فيما يلي عرض لبواكير التدوين التاريخي في السيرة والمغازي في بلاد الشام مع أشهر المصنفات في ذلك:

١- خالد بن معدان الكلاعي: جمع مرويات السيرة والمغازي في كتاب^(٢٩).

٢- المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (ت ١٠٥هـ): جمع ما رواه عن أبان بن عثمان في السيرة والمغازي في كتاب^(٣٠).

٣- الزهري (ت ١٢٤هـ): صنف كتاب (المغازي)^(٣١)، وكتاب (السيرة)^(٣٢).

٤- الأوزاعي (ت ١٥٧هـ): ألف كتاباً في السير اشتهر باسم (سير الأوزاعي)^(٣٣)، وقد ضمنه الشافعي في كتابه الأم^(٣٤).

٥- أبو إسحاق الفزاري (ت ١٨٨هـ): قال ابن قتيبة: صاحب السير^(٣٥).

٦- الوليد بن مسلم (ت ١٩٤هـ): له كتاب (المغازي)^(٣٦).

٧- محمد بن عائذ القرشي الدمشقي (ت ٢٣٣هـ): صنف ثلاثة كتب: (المغازي، والفتوح، والصوائف) ^(٣٧).

٨- أبو زرعة عبد الرحمن الدمشقي (ت ٢٨١هـ): له كتاب التاريخ ^(٣٨).

المطلب الرابع: خصائص مرويات بلاد الشام في السيرة والمغازي:
تميزت مرويات السيرة والمغازي في بلاد الشام بجملة من الخصائص والمزايا يمكن تلخيصها بما يأتي:

١- معظم مرويات الشاميين كانت عن صغار الصحابة: والسبب في ذلك أن كبار الصحابة ممن نزلوا الشام تقدمت وفاتهم ولم يعيشوا زمناً طويلاً فيها فلم يرووا إلا القليل أمثال: سعد بن عباد (ت ١٦هـ)، وأبي عبيدة عامر بن الجراح (ت ١٨هـ)، ومعاذ بن جبل (ت ١٨هـ)، وغيرهم.

٢- تبوأهم منزلة رفيعة في مرويات السيرة والمغازي دون الحديث: قال سفيان بن عيينة يقول: ومن أراد السير فعليه بأهل الشام، ^(٣٩).

٣- عدم الاهتمام بالإسناد: ولعل مما يبرر ذلك أنهم ساروا على منهج الصحابة الذين شاع الإرسال في مروياتهم ^(٤٠)، إذ لم تكن الحاجة داعية إلى الإسناد فيما يخبرون به من شؤون السيرة والمغازي والحديث؛ ذلك أن القوم كانوا عدولاً ولم يكن يكذب بعضهم، ولما كان زمن التابعين استمروا على هذا المنهج في الرواية خصوصاً أن الوضع والكذب كان ضعيفاً فيهم، لذا لم ير أهل الشام ما يدعوهم إلى الإسناد ^(٤١).

إلا أن هذا الأمر لا يصدق على مروياتهم إلا في القرن الأول وصدر

القرن الثاني، فقد تنبهوا لضرورة الإسناد ، وأول من نبههم إلى ذلك الإمام الزهري فقال: يا أهل الشام! ما لي أرى أحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم؟^(٤٢). يريد: ليس لها أسانيد. قال الوليد بن مسلم - معلقاً على كلام الزهري - وقد قبض يده: تمسك أصحابنا بالأسانيد من يومئذ^(٤٣).

٤- قلة الوضع: بدأ الوضع في الحديث في الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث وجد الوضعاء في ذلك الوقت المناخ الملائم للكذب والتلفيق والانتحال(٤٤). وكان حال بلاد الشام في ذلك كما هو الحال في مكة والمدينة لم يفش فيها الوضع والكذب مما أعطى لمروياتها قيمة علمية، بخلاف العراق التي كثر فيها الوضع^(٤٥)، وقد لأهل الشام بتلك المنزلة أم المؤمنين عائشة فقد فقالت فيما أخرجه الفسوي بإسناده إلى الزهري قال: قالت عائشة: يا أهل العراق! أهل الشام خير منكم؛ خرج إليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ كثير فحدثونا ما نعرف، وخرج إليكم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قليل فحدثتمونا بما نعرف وما لا نعرف^(٤٦).

الهوامش:

- (١) ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر (بيروت)، (د،ت،ط). الفصل الذي عقده بعنوان: تسمية من نزل الشام من أصحاب رسول الله (٧/٣٨٤-٤٣٩).
- (٢) اقتصر على ما يشير إلى الخبر ولم أسقه كاملاً بنصه خشية الإطالة.
- (٣) معجم الصحابة، ابن قانع، ت. صلاح بن سالم المصراطي، مكتبة الغرياء الأثرية (المدينة

- المنورة)، ط ١، ١٤١٨هـ، (١٩١٩/٤).
- (٤) الطبقات الكبرى: (٢٢١/١).
- (٥) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، ت. علي البجاوي، دار الجليل (بيروت)، ط ١٩٩٢م، (١٠٦/٦).
- (٦) الطبقات الكبرى: (٤١٩/٧).
- (٧) الطبقات الكبرى: (٤١٧/٧)، لم أقف على تاريخ وفاته.
- (٨) الإصابة في تمييز الصحابة: (٣٤٤/٢)، لم أقف على تاريخ وفاته.
- (٩) أحد أمراء الأجناد بالشام، أمّره أبو بكر رضي الله عنه سنة (١٢هـ)، ثم أمّره عمر رضي الله عنه على فلسطين ثم دمشق، توفي في طاعون عمواس (١٨هـ) وقيل (١٩هـ). الإصابة في تمييز الصحابة: (٦٥٨/٦).
- (١٠) كثر عددهم. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر (بيروت)، ط ١ (د،ت)، (ريل)، (٢٤٦/١١).
- (١١) الطبقات الكبرى: (٣٥٧/٢).
- (١٢) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساکر، ت. عمرو العمروي، دار الفكر (دمشق)، ط - ١٩٩٥م، (٣٢٨/١).
- (١٣) ينظر: بحوث في تاريخ السنة المشرفة، د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط ٣، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص ٢٤.
- (١٤) المعرفة والتاريخ، الفسوي، ت. د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، (٢٦٣/٢).
- (١٥) تاريخ الأمم، الطبري، دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (٢٠/٢)، (١٥٨/٢)، (٢١٢/٢).
- (١٦) الطبقات الكبرى: (١٢٨/١).
- (١٧) تاريخ مدينة دمشق: (٢٩٦/٥٥).
- (١٨) تذكرة الحفاظ، الذهبي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط ١، (د،ت)، (٢٧٣/١).
- (١٩) البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، (د،ط)، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، (١٨٦/١٠).
- (٢٠) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ت. عبد الرحمن محمد العاصمي، مكتبة ابن تيمية، ط ٢، (د،ت)، (٣٤٧-٣٤٦/١٣).
- (٢١) شرح السير الكبير، السرخسي، الشركة الشرقية للإعلانات، (د،ط) ١٩٧١م، (٣/١).

- (٢٢) تاريخ مدينة دمشق: (٣٢٧/١).
- (٢٣) الإصابة: (٦٥٩/٤).
- (٢٤) البداية والنهاية: (٢٤٢/٣).
- (٢٥) تاريخ مدينة دمشق: (١٣٦/٢٦).
- (٢٦) الأخبار الموقفيات، الزبير بن بكار، ت. د. سامي تركي العاني، عالم الكتب (بيروت)، ط ٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٢٧٦.
- (٢٧) تذكرة الحفاظ: (٧٦/١)، الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي: ص ٩٧.
- (٢٨) تاريخ مدينة دمشق: (٧٢/٦٠).
- (٢٩) التاريخ، أبو زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله نعمة القوجاني، مجمع اللغة العربية (دمشق)، (د)، (٣٥/١).
- (٣٠) تاريخ مدينة دمشق: (٧٢/٦٠).
- (٣١) كشف الظنون، حاجي خليفة، مكتبة المثنى (بغداد)، (د، ط)، ١٩٤١م، (٢/١٤٦٠).
- (٣٢) الروض الأنف، السهيلي، ت. طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر (بيروت)، (د، ط)، (١/٣٢٥)، السيرة الحلبية: علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة (بيروت)، (د، ط)، ١٤٠٠هـ، (٣/١).
- (٣٣) الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة (بيروت)، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، (د، ط)، ص ٢٩٦.
- (٣٤) (٢٧٧-١٧١/٩).
- (٣٥) المعارف، ابن قتيبة، ت. ثروت عكاشة، دار المعارف (القاهرة)، (د، ط)، ص ٥١٤.
- (٣٦) فهرست محمد بن خير، ت. محمد فؤاد منصور، دار الكتب (بيروت)، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٢٠٣.
- (٣٧) سير أعلام النبلاء: (١٠٦/١١).
- (٣٨) التاريخ: (١٨٣-١٤١/١).
- (٣٩) تاريخ مدينة دمشق: (٣٢٩/١).
- (٤٠) جامع التحصيل، العلائي، ت. حمدي السلفي، عالم الكتب (بيروت)، ط ٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ٦٦.
- (٤١) مشاهير رواد الحديث الأوائل بدمشق، د. محمد عزوز، دار ابن حزم (بيروت) مركز التراث الثقافي المغربي (الدار البيضاء)، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ١٨٣.
- (٤٢) تاريخ مدينة دمشق: (٣٣/٥٥).

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية

(حلب)، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٧٣ .

(٤٥) بحوث في تاريخ السنة المشرفة: ص ٢٤ .

(٤٦) المعرفة والتاريخ: (١/٣٦١).